تستوي عنده الحالات ـ من النعمة والبلية ـ في رضاه بحسن اختيار الله له.

وليس المراد استواؤها عنده في ملاءمته ومنافرته. فإن هذا خلاف الطبع البشري، بل خلاف الطبع الحيواني.

وليس المراد أيضاً استواء الحالات عنده في الطاعة والمعصية. فإن هذا مناف للعبودية من كل وجه. وإنما تستوي النعمة والبلية عنده في الرضى بهما لوجوه.

أحدها: أنه مفوض. والمفوض راض بكل ما اختاره له مَنْ فوض إليه. ولا سيما إذا علم كمال حكمته ورحمته، ولطفه وحسن اختياره له.

الثاني: أنه جازم بأنه لا تبديل لكلمات الله، ولا راد لحكمه. وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. فهو يعلم أن كُلّاً من البلية والنعمة بقضاء سابق، وقدر حَتْم.

الثالث: أنه عَبْد محض. والعبد المحض لا يسخط جريان أحكام سيده المشفق البار الناصح المحسن. بل يتلقاها كلها بالرضى به وعنه.

الرابع: أنه مُحِبّ. والمحب الصادق: من رضي بما يعامله به حبيبه.

الخامس: أنه جاهل بعواقب الأمور. وسيده أعلم بمصلحته وبما ينفعه.

السادس: أنه لا يريد مصلحة نفسه من كل وجه، ولو عرف أسبابها. فهو جاهل ظالم. وربه تعالى يريد مصلحته، ويسوق إليه أسبابها. ومن أعظم أسبابها: ما يكرهه العبد، فإن مصلحته فيما يكره أَضْعاف أضعاف مصلحته فيما يحب. قال الله تعالى **﴿كُتِبَ عليكُم القتالُ، وهو كُرْهٌ لكم. وعسى أن تكْرهوا شيئاً وهو خيرٌ لَكُم. وعسى أن تُحبوا شيئاً وهو شرٌّ لكم. والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾**[1] وقال تعالى **﴿فإن كَرِهْتُمُوهن فعَسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾**[2].

السابع: أنه مُسْلِم. والمسلم مَنْ قد سَلَّم نفسه لله. ولم يعترض عليه في جريان أحكامه عليه. ولم يسخط ذلك.

الثامن: أنه عارفٌ بربه. حسن الظن به. لا يتهمه فيما يُجريه عليه من أقضيته وأقداره. فحسنُ ظنه به يوجب له استواء الحالات عنده، ورضاه بما يختاره له سيده سبحانه.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٦.

(٢) سورة النساء الآية ١٩.

التاسع: أنه يعلم أن حَظَّه من المقدور ما يتلقاه به من رضًى وسخط. فلا بدّ له منه. فإن رضي فله الرضى، وإن سَخِط فله السخط.

العاشر: علمه بأنه إذا رضي انقلب في حقه نعمة ومنحة، وخَفَّ عليه حمله، وأُعين عليه. وإذا سخطه تضاعف عليه ثقله وكَلُّه، ولم يزدد إلا شدة. فلو أن السخط يُجدِي عليه شيئاً لكان له فيه راحة، أنفع له من الرضى به.

ونكتة المسألة: إيمانه بأن قضاء الرب تعالى خير له، كما قال النبيّ ﷺ «والذي نَفْسي بِيدِهِ، لا يَقضي الله لِلمؤمن قَضاءً إلا كانَ خيراً لَهُ. إن أصابته سرّاء شَكَر. فكان خيراً له. وإن أصابته ضرّاء صَبر، فكانَ خَيراً له. وليس ذلك إلا لِلمؤمن»[1].

الحادي عشر: أن يعلم أن تمام عبوديته في جريان ما يكرهه من الأحكام عليه. ولو لم يجر عليه منها إلا ما يحب لكان أبعد شيء عن عبودية ربه. فلا تتم له عبوديته ـ من الصبر، والتوكل، والرضى، والتضرع، والافتقار، والذل، والخضوع، وغيرها ـ إلا بجريان القدر له بما يكرهه. وليس الشأن في الرضى بالقضاء الملائم للطبيعة. إنما الشأن في القضاء المؤلم المنافر للطبع.

الثاني عشر: أن يعلم أن رضاه عن ربه سبحانه وتعالى في جميع الحالات يثمر رضى ربه عنه. فإذا رضي عنه بالقليل من الرزق: رضي ربه عنه بالقليل من العمل. وإذا رضي عنه في جميع الحالات، واستوت عنده، وجده أسرع شيء إلى رضاه إذا ترضّاه وتَملّقه.

الثالث عشر: أن يعلم أن أعظم راحته، وسروره ونعيمه: في الرضى عن ربه تعالى وتقدس في جميع الحالات. فإن الرضى باب الله الأعظم، ومستراح العارفين، وجنة الدنيا. فجدير بمن نَصَح نفسه أن تشتد رغبته فيه. وأن لا يستبدل بغيره منه.

الرابع عشر: أن السخط باب الهمّ والغَمّ والحَزَن، وشَتات القلب، وكَسْف البال، وسوء الحال، والظن بالله خلاف ما هو أهله. والرضى يخلّصه من ذلك كله ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة.

الخامس عشر: أن الرضى يوجب له الطمأنينة، وبَرْد القلب، وسكونَه وقراره. والسخط يوجب اضطراب قلبه، وريبته وانزعاجه، وعدم قراره.

---

(١) تقدم تخريجه بلفظ «عجباً ـ أو عجبت ـ لأمر المؤمن..».

السادس عشر: أنَّ الرضى يُنزل عليه السكينة التي لا أنفع له منها. ومتى نزلت عليه السكينة: استقام. وصلحت أحواله، وصلح باله. والسخط يبعده منها بحسب قلته وكثرته. وإذا ترحَّلت عنه السكينة ترحل عنه السرور والأمن والدَّعَة والراحة، وطيب العيش. فمن أعظم نعم الله على عبده: تَنَزُّل السكينة عليه. ومن أعظم أسبابها: الرِّضى عنه في جميع الحالات.

السابع عشر: أنَّ الرِّضى يفتح له باب السلامة. فيجعل قلبه سليماً نَقِيّاً من الغش والدَّغَل والغِلِّ. ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم. كذلك وتَستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضى. وكلَّما كان العبد أشد رضى كان قلبه أسلم. فالخَبَث والدغَل والغِشّ: قَرين السَّخط. وسلامة القلب وبِرّه ونُصحه: قرين الرضى. وكذلك الحسد: هو من ثمرات السخط، وسلامة القلب منه من ثمرات الرضى.

الثامن عشر: أن السخط يوجب تلوُّن العبد، وعدم ثباته مع الله. فإنه لا يرضى إلا بما يلائم طبعه ونفسه. والمقادير تجري دائماً بما يلائمه وبما لا يلائمه. وكلما جرى عليه منها ما لا يلائمه أسخطه. فلا تثبت له قَدَم على العبودية. فإذا رضي عن ربه في جميع الحالات، استقرت قدمه في مقام العبودية. فلا يزيل التلون عن العبد شيء مثل الرضى.

التاسع عشر: أن السخط يفتح عليه باب الشك في الله، وقضائه وقدره، وحكمته وعلمه. فقلَّ أن يَسْلم الساخط من شك يداخل قلبه ويتغلغل فيه، وإن كان لا يشعر به. فلو فتش نفسه غاية التفتيش لوجد يقينه معلولاً مدخولاً. فإن الرضى واليقين أخوان مصطحبان. والشك والسخط قرينان. وهذا معنى الحديث الذي في الترمذي ـ أو غيره «إن استطعتَ أن تعملَ بالرضى مع اليقين فافعل. فإن لم تَسْتطِع فإن في الصبر على ما تكره النفس خيراً كثيراً»(١).

العشرون: أن الرضى بالمقدور من سعادة ابن آدم، وسخطه من شقاوته، كما في المسند والترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من سعادة ابن آدم: استخارة الله عزَّ وجلَّ. ومن سَعادة ابن آدم رضاه بما قَضى الله. ومن شِقْوة ابن آدم: سخطه بما قضى الله. ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله»(٢)

---

(١) تقدم.

(٢) أخرجه الترمذي في القدر باب ما جاء في الرضى بالقدر، عن سعد بن أبي وقاص مرفوعاً (٤/٤٥٥ ـ ٤٥٦ رقم ٢١٥١) قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن أبي حميد ويقال له أيضاً حماد بن أبي حميد وهو أبو إبراهيم المدني، وليس هو بالقوي عند أهل الحديث، ورواه الحاكم =

فالرضا بالقضاء من أسباب السعادة. والتسخط على القضاء من أسباب الشقاوة.

الحادي والعشرون: أن الرضى يوجب له أن لا يأسَى على ما فاته، ولا يفرح بما آتاه. وذلك من أفضل الإيمان.

أما عدم أساه على الفائت: فظاهر. وأما عدم فرحه بما آتاه: فلأنه يعلم أن المصيبة فيه مكتوبة من قبل حصوله. فكيف يفرح بشيء يعلم أن له فيه مصيبة منتظرة ولا بدّ؟.

الثاني والعشرون: أن من ملأ قلبه من الرضى بالقدر: ملأ الله صدره غِنىً وأمناً وقناعة. وفرَّغ قلبه لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه. ومن فاته حظه من الرضى: امتلأ قلبه بضد ذلك. واشتغل عما فيه سعادته وفلاحه.

فالرضى يفرغ القلب لله، والسخط يفرغ القلب من الله.

الثالث والعشرون: أن الرضى يثمر الشكر، الذي هو من أعلى مقامات الإيمان، بل هو حقيقة الإيمان. والسخط يثمر ضده. وهو كُفْر النعم. وربما أثمر له كفر المنعم. فإذا رضي العبد عن ربه في جميع الحالات: أوجب له ذلك شكره. فيكون من الراضين الشاكرين. وإذا فاته الرضى: كان من الساخطين. وسلك سبيل الكافرين.

الرابع والعشرون: أن الرضى ينفي عنه آفات الحرص والكَلب على الدنيا. وذلك رأس كل خطيئة، وأصل كل بلية. وأساس كل رَزية. فرِضاهُ عن ربِّه في جميع الحالات: ينفي عنه مادة هذه الآفات.

الخامس والعشرون: أن الشيطان إنما يظفر بالإنسان غالباً عند السخط والشهوة. فهناك يصطاده. ولا سيما إذا استحكم سخطه. فإنه يقول ما لا يرضي الرب. ويفعل ما لا يرضيه. وينوي ما لا يرضيه. ولهذا قال النبيّ ﷺ عند مَوْت ابنه إبراهيم «يَحْزَن القَلْب. وتَدْمع العَيْن. ولا نقول إلا ما يُرضي الرَّب»[1] فإن موت البنين من العوارض التي توجب للعبد السخط على القدر. فأخبر النبيّ ﷺ: أنه لا يقول في مثل هذا المقام - الذي يسخطه أكثر الناس. فيتكلمون بما لا يرضي الله. ويفعلون ما لا يرضيه - إلا ما يرضي ربه تبارك وتعالى. ولهذا لما مَاتَ ابنُ الفضيل بن عياض رؤي في الجنازة ضاحكاً.

= (١/٥١٨) وأحمد (١/١٦٨). قال ابن حجر بعد أن عزاه أيضاً لأحمد: «وإسناده حسن» (فيض القدير ٦/١٥).

(١) رواه مسلم في الفضائل باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٤/١٨٠٧ - ١٨٠٨ رقم ٢٣١٥). عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً. وأحمد (٣/١٩٤).

فقيل له: أتضحك وقد مات ابنك؟ فقال: إن الله قضى بقضاء فأحببت أن أرضى بقضائه.

فأنكرت طائفة هذه المقالة على الفضيل. وقالوا: رسول الله ﷺ بكى يوم مات ابنه. وأخبر أن «القلب يحزن، والعين تدمع» وهو في أعلى مقامات الرضى. فكيف يعد هذا من مناقب الفضيل؟.

والتحقيق: أن قلب رسول الله ﷺ اتَّسع لتكميل جميع المراتب، من الرضى عن الله، والبكاء رحمة للصبي. فكان له مقام الرضى، ومقام الرحمة ورقة القلب. والفضيل لم يتسع قلبه لمقام الرضى ومقام الرحمة. فلم يجتمع له الأمران. والناس في ذلك على أربع مراتب.

أحدها: من اجتمع له الرضى بالقضاء ورحمة الطفل. فدمعت عيناه رحمة والقلب راض.

الثاني: من غَيَّبه الرِّضى عن الرحمة. فلم يتسع للأمرين. بل غيبه أحدهما عن الآخر.

الثالث: من غَيَّبته الرحمة والرِّقة عن الرضى فلم يشهده، بل فني عن الرضى.

الرابع: من لا رضى عنده ولا رحمة. وإنما يكون حزنه لفوات حظه من الميت. وهذا حال أكثر الخلق. فلا إحسان. ولا رضى عن الرحمن. والله المستعان.

فالأول في أعلى مراتب الرضى، والثاني دونه. والثالث دون الثاني. والرابع هو الساخط.

السادس والعشرون: أن الرِّضى هو اختيار ما اختاره الله لعبده. والسخط كراهة ما اختاره الله له، وهذا نوع محادة. فلا يتخلص منه إلا بالرضى عن الله في جميع الحالات.

السابع والعشرون: أن الرِّضى يخرج الهَوى من القلب. فالراضي هواهُ تبع لمراد ربه منه. أعني المراد الذي يحبه ربه ويرضاه. فلا يجتمع الرضى واتباع الهوى في القلب أبداً، وإن كان معه شعبة من هذا وشعبة من هذا، فهو للغالب عليه منهما.

الثامن والعشرون: أن الرضى عن الله في جميع الحالات يُثمر للعبد رضى الله عنه - كما تقدم بيانه في الرضى به - فإن الجزاء من جنس العمل. وفي أثر إسرائيلي أن موسىٰ ﷺ «سأل ربه عزَّ وجلَّ: ما يُدني من رِضاه؟ فَقال: إن رضايَ في رضاكَ بقَضَائي».

التاسع والعشرون: أن الرضى بالقضاء أشق شيء على النفس. بل هو ذبحها في الحقيقة. فإنه مخالفة هواها وطبعها وإرادتها. ولا تصير مطمئنة قط حتى ترضى بالقضاء. فحينئذ تستحق أن يقال لها ﴿**يا أيّتها النَّفْس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادْخُلِي في عِبادي. وادْخُلِي جَنّتِي**﴾[1].

الثلاثون: أن الراضي متلق أوامر ربه ـ الدينية والقدرية ـ بالانشراح والتسليم، وطيب النفس، والاستسلام. والساخط يتلقاها بضد ذلك إلا ما وافق طبعه. وإرادته منها.

وقد بيَّنا أن الرضى بذلك لا ينفعه ولا يثاب عليه. فإنه لم يرض به لكون الله قدره وقضاه وأمر به. وإنما رضي به لموافقته هواه وطبعه. فهو إنما رضي لنفسه وعن نفسه. لا بربه، لا عن زبه.

الحادي والثلاثون: أن المخالفات كلها أصلها من عدم الرضى. والطاعات كلها أصلها من الرضى. وهذا إنما يعرفه حق المعرفة من عرف صفات نفسه، وما يتولد عنها من الطاعات والمعاصي.

الثاني والثلاثون: أن عدم الرضى يفتح باب البدعة، والرضى يغلق عنه ذلك الباب. ولو تأملت بدع الروافض، والنواصب، والخوارج. لرأيتها ناشئة من عدم الرضى بالحكم الكوني، أو الديني، أو كليهما.

الثالث والثلاثون: أن الرضى مَعْقِد نظام الدين ظاهره وباطنه. فإن القضايا لا تخلو من خمسة أنواع:

فتنقسم قسمين: دينية، وكونية. وهي مأمورات، ومنهيات، ومباحات، ونِعَمٌ مُلِذَّةٌ، وبلايا مؤلمة.

فإذا استعمل العبد الرضى في ذلك كله، فقد أُخذ بالحظ الوافر من الإسلام، وفاز بالقِدْح المعلَّى.

الرابع والثلاثون: أن الرضى يخلص العبد من مخاصمة الرب تعالى في أحكامه وأقضيته. فإن السخط عليه مخاصمة له فيما لم يرض به العبد. وأصل مخاصمة إبليس لربه: من عدم رضاه بأقضيته وأحكامه الدينية والكونية. فلو رضي لم يُمسخ من الحقيقة الملكية إلى الحقيقة الشيطانية الإبليسية.

الخامس والثلاثون: أن جميع ما في الكون أوجبته مشيئة الله، وحكمته، وملكه.

---

(١) سورة الفجر الآيات ٢٧ ـ ٣٠.

فهو موجب أسمائه وصفاته. فمن لم يرض بما رضي بـه ربه، لم يـرض بأسـمائه وصفـاته. فلم يرض به رباً.

السادس والثلاثون: أن كل قدر يكرهه العبد ولا يـلائمه. لا يخلو: إما أن يكون عُقوبة على الذَّنْب. فهو دواء لمرض لولا تدارك الحكيم إياه بالـدواء لترامى بـه المرض إلى الهلاك. أو يكون سبباً لنعمة لا تنال إلا بذلك المكروه. فـالمكروه ينقـطع ويتلاشى. ومـا يـترتب عليه من النعمـة دائم لا ينقطع. فـإذا شهد العبـد هذين الأمـرين انفتح لـه باب الرضى عن ربه في كل ما يقتضيه له ويقدره.

السابع والثلاثون: أن حُكم الرب تعالى مـاض في عبده، وقضـاؤه عدل فيـه. كما في الحديث «ماضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَـاؤُكَ»[1] ومن لم يرض بـالعدل فهـو من أهل الظلم والجور.

وقوله «عدل فِيَّ قَضَاؤُكَ» يَعُم قضاء الذنب، وقضاء أثره وعقوبته. فإن الأمرين من قضائه عزَّ وجلَّ. وهو أعدل العادلين في قضائه بالذنب، وفي قضائه بعقوبته.

أما عدله في العقوبة: فظاهر. وأما عدله في قضائه بـالذنب: فـلأن الذنب عقـوبة عـلى غفلته عن ربـه. وإعراض قلبـه عنه. فـإنه إذا غَفـل قلبه عن ربـه ووليـه، ونقص إخـلاصـه: استحق أن يُضْرَب بهـذه العقـوبـة. لأن قلوب الغـافلين معـدن الـذنـوب. والعقوبات واردة عليها من كل جهة. وإلا فمع كمال الإخلاص والذكر والإقبـال على الله سبحانه وتعـالى وذكره، يستحيـل صدور الـذنب. كما قـال تعالى ﴿**كـذلكَ لنَصْـرِفَ عنه السُّوء والفَحْشاء. إنه من عِبادنا المُخْلَصِين**﴾[2].

فإن قلت: قضاؤه على عبده بإعراضه عنه، ونسيانه إياه، وعدم إخـلاصه: عقـوبة على ماذا؟.

---

(١) هو الحديث الذي أخرجه أحمد في مسنده عن ابن مسعود، من طريق فضيل بن مـرزوق ثنا أبـو سلمة الجهني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عنه (١/٣٩١ و٤٥٢).
ولفـظه: «ما أصـاب أحداً قط هم ولا حـزن فقال: اللهم إني عبـدك وابن عبدك وابن أمتـك ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيّ قضـاؤك، أسألـك بكل اسم هـو لك سميت بـه نفسك أو علمتـه أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استـأثرت بـه في علم الغيب عندك أن تجعـل القرآن ربيـع قلبي ونـور صدري وجـلاء حزني وذهـاب همي» إلا أذهب الله همه وحـزنه وأبـدله مكـانه فـرجاً. قـال فقيل يا رسول الله ألا نتعلمهـا؟ فقال: بـلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمهـا». ورواه الحاكم (١/٥٠٩) عنـه. وقال: صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبد الرحمن عن أبيه فإنه مختلف في سماعـه من أبيه» ورواه ابن حبان. وصححه الألباني في الأحاديث الصحيحة (١٩٩).

(٢) سورة يوسف الآية ٢٤.

قلت: هذا طبع النفس وشأنها، فهو سبحانه إذا لم يرد الخير بعبده خلى بينه وبين نفسه وطبعه وهواه. وذلك يقتضي أثرها من الغفلة والنسيان، وعدم الإخلاص واتباع الهوى. وهذه الأسباب تقتضي آثارها من الآلام، وفوات الخيرات واللذات. كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها وآثارها.

فإن قلت: فهلا خلقه على غير تلك الصفة؟.

قلت: هذا سؤال فاسد، ومضمونه: هلا خلقه ملَكاً لا إنساناً؟.

فإن قلت: فهلا أعطاه التوفيق الذي يتخلص به من شر نفسه، وظلمة طبعه؟.

قلت: مضمون هذا السؤال: هلا سوى بين جميع خلقه؟ ولم خلق المتضادات والمختلفات؟ وهذا من أفسد الأسئلة. وقد تقدم بيان اقتضاء حِكمته وربوبيته ومُلْكه لخلق ذلك.

الثامن والثلاثون: أن عدم الرضى إما أن يكون لفوات ما أخطأه مما يحبه ويريده. وإما لإصابة ما يكرهه ويسخطه. فإذا تيقن أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه: وما أصابه لم يكن ليخطئه: فلا فائدة في سخطه بعد ذلك إلا فوات ما ينفعه وحصول مايضرُّه.

التاسع والثلاثون: أن الرضى من أعمال القلوب، نظير الجهاد من أعمال الجوارح. فإن كل واحد منهما ذِرْوة سَنام الإيمان. قال أبو الدرداء: «ذِرْوة سَنام الإيمان: الصبر للحُكْم، والرضى بالقدر»[1].

الأربعون: أن أول معصية عُصي الله بها في هذا العالم: إنما نشأت من عدم الرضى. فإبليس لم يرضَ بحكم الله الذي حكم به كوناً، من تفضيل آدم وتكريمه، ولا بحكمه الديني، من أمره بالسجود لآدم. وآدم لم يرضَ بما أبيح له من الجنة. حتى ضَمَّ إليه الأكل من شجرة الحِمَى. ثم ترتبت معاصي الذرية على عدم الصبر وعدم الرضى.

الحادي والأربعون: أن الراضي واقف مع اختيار الله له. معرض عن اختياره لنفسه. وهذا من قوة معرفته بربه تعالى، ومعرفته بنفسه.

وقد اجتمع وهيب بن الورد[2]، وسُفيان الثوري، ويوسف بن أسباط. فقال

---

(١) أخرج أبو نعيم والديلمي في مسنده عن أبي الدرداء: ذروة الإيمان أربع خلال: الصبر للحكم، والرضا بالقدر والإخلاص للتوكل والاستسلام للرَّب.. » (فيض القدير ٣/٥٦١). وهو في الحلية (٢١٦/١) من طريق خالد بن معدان عن يزيد بن مرثد عن أبي الدرداء رضي الله عنه من كلامه.

(٢) هو العابد الرباني وهيب بن الورد، روى عن حميد بن قيس الأعرج وعمر بن محمد بن المنكدر وروى عنه بشر بن منصور السلمي وابن المبارك وعبد الرزاق وغيرهم. قيل كان لا يأكل مما في الحجاز تورعاً عما اصطفاه الولاة لمواشيهم وأنفسهم. توفي سنة ١٥٣ هـ. أنظر: طبقات ابن سعد ٤٨٨/٥، الجرح =

الثوري: قد كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم. وأما اليوم: فوددت أني ميت.

فقال له يوسف بن أسباط: ولم؟ فقال: لما أتخوف من الفتنة.

فقال يوسف: لكني لا أكره طول البقاء.

فقال الثوري: ولم تكره الموت؟

قال: لعلي أصادف يوماً أتوبُ فيه وأعمل صالحاً.

فقِيل لوهيب: أي شيء تقول أنت؟

فقال: أنا لا أختار شيئاً، أحب ذلك إليَّ أحبه إلى الله.

فقبل الثوري بين عينيه. وقال: رُوحانية وربِّ الكعبة.

فهذا حال عبد قد استوت عنده حالة الحياة والموت. وقف مع اختيار الله له منهما. وقد كان وهيب ـ رحمه الله ـ له المقام العالي من الرضى وغيره.

الثاني والأربعون: أن يعلم أن منع الله سبحانه وتعالى لعبده المؤمن المحب عطاء، وابتلاءه إياه عافية. قال سفيان الثوري: منعه عطاء. وذلك: أنه لم يمنع عن بخل ولا عُدْم. وإنما نظر في خير عبده المؤمن فمنعه اختياراً وحسن نظر.

وهذا كما قال. فإنه سبحانه لا يقضي لعبده المؤمن قضاء إلا كان خيراً له، ساءه ذلك القضاء أو سره. فقضاؤه لعبده المؤمن المنع عطاء. وإن كان في صور المنع، ونعمة، وإن كانت في صورة محنة. وبلاؤه عافية، وإن كان في صورة بلية. ولكن لجهل العبد وظلمه لا يعد العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذ به في العاجل. وكان ملائماً لطبعه. ولو رزق من المعرفة حظاً وافراً لَعَدَّ المنع نعمة، والبلاء رحمة. وتلذذ بالبلاء أكثر من لذَّته بالعافية. وتلذذ بالفقر أكثر من لذته بالغنى. وكان في حال القلة أعظم شُكْراً من حالِ الكثرة.

وهذه كانت حال السلف.

فالعاقل الراضي: من يعد البلاء عافية، والمَنْع نِعْمة، والفقر غنى.

وأوحى الله إلى بعض أنبيائه: «إذا رأيتَ الفقر مُقبلاً، فقل: مَرْحباً بشِعار الصالحين. وإذا رأيتَ الغِنى مُقبلاً. فقل: ذَنْب عُجِّلت عقوبته»[1].

= والتعديل ٩/٣٤ حلية الأولياء ٨/١٤٠ ـ ١٦١ تهذيب التهذيب ١١/١٧٠ ـ ١٧١، شذرات الذهب ١/٢٣٦، سير أعلام النبلاء ٧/١٩٨...

(١) هو موسى عليه السلام، والخبر عزاه الحافظ العراقي في تخريجه لإحياء علوم الدين لأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي الدرداء. قال: ولم يسمع منه. قال: قال رسول الله ﷺ: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: يا موسى فذكره.. بزيادة في أوله. ورواه أبو نعيم في الحلية من =

فالراضي: هو الذي يعد نعم الله عليه فيما يكرهه، أكْثَر وأعظم من نعمه عليه فيما يحبه، كما قال بعض العارفين: يا ابنَ آدم نعمة الله عليك فيما تكره أعظم من نعمته عليك فيما تُحب. وقد قال تعالى **﴿وعَسى أن تكرهوا شيئاً وهُوَ خَيرٌ لَكُم﴾**[1] وقد قال بعض العارفين: إرضَ عن الله في جميع ما يفعله بك. فإنه ما منعك إلا ليعطيك. ولا ابتلاك إلا ليعافيك. ولا أمْرَضك إلا ليشفيك. ولا أماتَك إلا ليحييك. فإياك أن تفارق الرضى عنه طرفة عين. فتسقط من عينه.

الثالث والأربعون: أن يعلم أنه سبحانه هو الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء، والمُظهِرَ لكل شيء، والمالك لكل شيء. وهو الذي يخلق ما يشاء ويختار. وليس للعبد أن يختار عليه، وليس لأحد معه اختيار. ولا يشرك في حكمه أحداً. والعبد لم يكن شيئاً مذكوراً. فهو سبحانه الذي اختار وجوده. واختار أن يكون كما قدره له وقضاه: من عافية وبلاء، وغنى وفقر، وعزّ وذل، ونباهة وخمول. فكما تفرد سبحانه بالخلق، تفرد بالاختيار والتدبير ـ وليس للعبد شيء من ذلك ـ فإن الأمر كله لله. وقد قال تعالى لنبيه ﷺ **﴿لَيْسَ لَكَ من الأمْرِ شيء﴾**[2] فإذا تيقن العبد أن الأمر كله لله، وليس له من الأمر قليل ولا كثير. لم يكن له معول ـ بعد ذلك ـ غير الرضى بمواقع الأقدار. وما يجري به من ربه الاختيار.

الرابع والأربعون: أنَّ رِضى الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها. لأن الرضى صفة الله والجنة خلقه، قال الله تعالى **﴿ورِضْوان من الله أكبر﴾** بعد قوله **﴿وعدَ اللهُ المؤمنين والمؤمنات جَناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكنَ طيبة في جَنّات عدنٍ ورضوان من الله أكبر. ذلك هو الفوز العظيم﴾**[3] وهذا الرضى جزاء على رضاهم عنه في الدنيا، ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء، كان سببه أفضل الأعمال.

الخامس والأربعون: أن العبد إذا رَضي به وعَنه في جميع الحالات: لم يتخيَّر عليه المسائل. وأغناه رضاه بما يقسمه له ويقدره ويفعله به عن ذلك. وجعل ذكره في محل سؤاله. بل يكون من سؤاله له الإعانة على ذكره، وبلوغ رضاه. فهذا يُعْطَى أفضل ما يعطاه سائل. كما جاء في الحديث: «من شَغَله ذِكْري عن مَسْألتي أعطيتُهُ أفضل ما أُعطي

= قول كعب الأحبار غير مرفوع بإسناد ضعيف» (٥/٢٤٠٩). أيضاً: الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية للمناوي ص ٣١١.

(١) سورة البقرة الآية ٢١٦.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٢٨.

(٣) سورة التوبة الآية ٧٢.

السائلين»[1] فإن السائلين سألوه. فأعطاهم الفضل الذي سألوه. والراضون رضوا عنه فأعطاهم رضاه عنهم، ولا يمنع الرضى سؤاله أسباب الرضى، بل أصحابه مُلِحُّون في سؤاله ذلك.

السادس والأربعون: أن النبيّ ﷺ كان يندب إلى أعلى المقامات. فإن عجز العبد عنه: حطَّه إلى المقام الوَسط، كما قال: «اعبُد الله كأنك تراه»[2] فهذا مقام المراقبة الجامع لمقامات الإسلام والإيمان والإحسان. ثم قال «فإن لم تكن تراه فإنه يَراك» فحطه عند العجز عن المقام الأول إلى المقام الثاني، وهو العلم باطلاع الله عليه ورؤيته له، ومشاهدته لعبده في الملأ والخلاء. وكذا الحديث الآخر «إن استطعت أن تَعْمل لله بالرضى مع اليقين فافعل. فإن لم تَستطِع فإن في الصبر على ما تَكْره [النفس] خَيراً كَثيراً» فرفعه إلى أعلى المقامات. ثم رده إلى أوسطها إن لم يستطع الأعلى. فالأول: مقام الإحسان. والذي حطَّه إليه: مقام الإيمان. وليس دون ذلك إلا مقام الخسران.

السابع والأربعون: أنه ﷺ أَثْنَى على الراضين بمُرِّ القضاء بالحكم والعلم والفقه، والقرب من درجة النبوة. كما في حديث الوَفْد الذين قدموا على رسول الله. فقال «ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون. فقال: ما عَلامة إيمانكم؟ فقالوا: الصَّبر عند البلاء، والشُّكر عند الرخاء، والرضى بمُرِّ القضاء. والصِّدق في مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء. فقال: حُكَماء عُلَماء. كادوا من فِقههم أن يكونوا أنبياء»[3].

الثامن والأربعون: أن الرضى آخذ بزمام مقامات الدين كلها. وهو روحها

(١) عزاه الحافظ العراقي في تخريج الإحياء: للبخاري في التاريخ الكبير والبزار في مسنده والبيهقي في الشعب من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وفيه صفوان بن أبي الصفا ذكره ابن حبان في الضعفاء وفي الثقات أيضاً (١/٥٣٦). وقد رواه الترمذي بلفظ «يقول الرب تبارك وتعالى: من شغله قراءة القرآن عن مسألتي أعطيتهُ أفضل ما أعطي السائلين» عن أبي سعيد الخدري. في ثواب القرآن باب رقم ٢٥ (٥/١٨٤ رقم ٢٩٢٦) قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. ورواه هكذا الدارمي في مسنده (٢/٥٣٣). ورواه القضاعي في مسنده (١/٣٤٠). وفي إسناده ـ كما قال محققه السلفي ـ الضحاك بن حمزة وهو ضعيف وأبو الزبير مدلس وقد عنعنه وسعيد بن يحيى وأبو سفيان الحميري قال الحافظ: صدوق وسط. فالحديث ضعيف» والديلمي في الفردوس (٣/٢١٦ ـ ٢١٧) وانظر الموضوعات ٣/١٦٥ واللآلىء المصنوعة ٢/٣٤٢ وتنزيه الشريعة ٢/٣٢٣.

(٢) هو حديث مجيء جبريل عليه السلام.. ولفظه: أن تعبد الله كأنك تراه...» تقدم.

(٣) عزاه الحافظ العراقي في تخريج الإحياء لـ: أبي نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد والخطيب في التاريخ من حديث سويد بن الحارث بإسناد ضعيف». (١/٥٤). وهو في الحلية مطولاً من حديث سويد (٩/٢٧٩). من طريق أحمد بن أبي الحواري عن أبي سليمان الداراني عن علقمة بن يزيد بن سويد الأزدي عن أبيه عن جده مرفوعاً. وذكره ابن حجر في الإصابة في ترجمة سويد بن الحارث (٣/١٥١).

وحياتها. فإنه روح التوكل وحقيقته، وروح اليقين، وروح المحبة، وصحة المحب، ودليل صدق المحبة، وروح الشكر ودليله.

قال الربيع بن أنس[1]: علامة حب الله: كثرة ذكره. فإنك لا تحب شيئاً إلا أكثرت من ذكره. وعلامة الدين: الإخلاص لله في السر والعلانية. وعلامة الشكر، الرضى بقدر الله والتسليم لقضائه.

وقال أحمد بن أبي الحواري: ذاكرت أبا سليمان في الخبر المروي «أول [مَنْ] يُدعَى إلى الجنة الحمّادُون»[2] فقال: ويحك، ليس هو أن تحمده على المصيبة وقلبك يتعصَّ عليك. إذا كنت كذلك فارجع إلى الصابرين. إنما الحمد: أن تحمده وقلبك مسلم راض.

فصار الرضى كالروح لهذه المقامات، والأساس الذي تنبني عليه. ولا يصح شيء منها بدونه البتة، والله أعلم.

التاسع والأربعون: أن الرضى يقوم مقام كثير من التعبدات التي تشق على البدن. فيكون رضاه أسهل عليه، وألذ له، وأرفع في درجته. وقد ذكر في أثر إسرائيلي: إن عابداً عبد الله دهراً طويلاً، فأرِي في المنام: أن فلانة الراعية رفيقتك في الجنة، فسأل عنها، إلى أن وجدها. فاستضافها ثلاثاً لينظر إلى عملها فكان يبيت قائماً وتبيت نائمة. ويظل صائماً وتظل مفطرة. فقال لها: أمالك عمل غير ما رأيت؟ قالت: ما هو والله غير ما رأيت ـ أو قالت: إلا ما رأيت ـ لا أعرف غيره، فلم يزل يقول لها: تَذَكَّري. حتى قالت: خُصَيلة واحدة هي في. وذلك: أني إن كنت في شدة لم أتمن أني في رخاء. وإن كنت في مرض لم أتمن أنني في صحة. وإن كنت في الشمس لم أتمن أني في الظل. قال: فوضع العابد يده على رأسه. وقال: أهذه خصيلة؟ هذه والله خصلة عظيمة يعجز عنها العُبَّاد.

---

(١) هو الربيع بن أنس بن زياد البكري الخراساني المروزي. سمع من أنس بن مالك وأبا العالية الرياحي وأكثر عنه. والحسن البصري. وروى عنه سليمان التيمي والأعمش والحسين بن واقد وأبو جعفر الرازي وابن المبارك وغيرهم. توفي سنة ١٣٩، أنظر: طبقات ابن سعد ١٠٢/٧، الجرح والتعديل ٤٥٤/٢ ـ ٤٥٥، ثقات ابن حبان ٦٤/٣، مشاهير علماء الأمصار ١٢٦، تهذيب التهذيب ٢٣٨/٣ ـ ٢٣٩. سير أعلام النبلاء ١٦٩/٦ ـ ١٧٠.

(٢) رواه الحاكم (٥٠٢/١) وقال: على شرط مسلم. وأقرّه الذهبي. والطبراني في الكبير والأوسط والصغير والبيهقي وأبو نعيم كلهم عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً به. قال الحافظ العراقي بعدما عزاه للطبراني وأبو نعيم والبيهقي: فيه: قيس بن الربيع ضعفه الجمهور وقال الهيثمي: في أحد أسانيد الطبراني قيس بن الربيع وثقه شعبة وضعفه القطان وغيره وبقية رجاله رجال الصحيح». ورواه البزار بنحوه وإسناده حسن» (فيض القدير ٩٢/٣ ومجمع الزوائد ٩٨/١٠). وما بين الحاصرتين زيادة سقطت من الأصل.

وقـد روى ابن مسعود رضي الله عنـه: «مَنْ رضي بما أُنـزل من السماء إلى الأرض غُفِر له».

وفي أثر مرفوع: «من خير ما أُعطى العبد: الرضى بما قَسم الله له»[1].

وفي أثـر آخـر: «إذا أحب الله عبـداً ابتلاه. فـإن صـبر اجتبـاه، فـإن رضي اصطَفاه»[2].

وفي أثـر: إنَّ بني إسرائيل «سَـأَلوا مُـوسىٰ أن يَسأل ربَّـه أمـراً إذا هم فعلوه رضي عنهم. فقـال مُوسىٰ: رب، إنـك تسمع مـا يقولـون. فقال: قـل لهم يرضـون عني حتى أرْضَى عنهم»[3].

وفي أثر آخر عن النبيّ ﷺ «مَنْ أَحبَّ أن يَعلم ماله عنـد الله. فلينظر مـالله عندَه. فإن الله ينزل العبد منه حيث ينزله العبد من نَفْسه»[4].

وفي أثـر آخر: «من رضيَ من الله بـالقليل من الـرزق، رضي الله منه بـالقليل من العَمْل»[5].

وقـال بعض العارفـين: أعرف في المـوتى عالمـاً ينـظرون إلى منـازلهم في الجنـان في قبورهم، يُغْدَى عليهم ويُراح برزقهم من الجنة بُكْرة وعشيـاً. وهم في غموم وكـروب في البرزخ. لو قسمت على أهل بلد لماتوا أجمعين.

قيل: وما كـانت أعمالهم؟ قـال: كانـوا مسلمين مؤمنـين، إلا أنهم لم يكن لهم من التوكل ولا من الرضى نصيب.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ذكره الديلمي ـ الأب ـ في «فردوس الأخبار» من حـديث علي بن أبي طـالب رضي الله عنه. ولم يخـرجه ابنه في «مسنده» أنظر (الفردوس ومعه تسديـد القوس ١/٣١١ وتخريج الاحيـاء للعراقي ٥/٩٩) روى الطبراني وابن ماجه والضياء في «المختارة» عن أنس: «إذا أحب الله قوماً ابتلاهم» وروى أحمـد الديلمي عن أبي هـريرة، إذا أحب الله أحـداً ابتلاه ليسمـع تضرعـه. وروى الـطبراني عن أبي عنبسـة الخـولاني بلفظ: «وإذا أحب الله عبداً ابتلاه وإذا أحبه الحب البالغ اقتناه، لا يترك له مـالاً ولا ولداً».... الـخ (أنظر كشف الخفاء ١/٨٠).

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

(٤) رواه الحاكم من حديث جابر وصححه (١/٤٩٤) وقال الحـافظ الذهبي: عمر (أي ابن عبد الله مـولى غُفْرة) ضعيف. وقال الحافظ ابن حجر: ضعيف وكان كثير الإرسال» (تقريب التهذيب ٢/٥٩).

(٥) قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء»: رويناه في أمالي المحاملي بإسناد ضعيف من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومن طريق المحامـلي رواه أبو منصـور الديلمي في مسنـد الفردوس» (٥/٢٦٦٥). وعزاه السيوطي في «الجـامع الصغـير» للبيهقي عن علي رضي الله عنـه. قال المنـاوي: وفيه إسحـاق بن محمـد بن الفروي أورده الـذهبي في الضعفـاء. وقـال النسـائي: ليس بثقـة. ووهـاه أبـو داود وتـركـه الدارقطني وقال أبو حاتم: صدوق لقن لذهاب بصره وقال مرة: يضطرب» (فيض القدير ٦/١٣٧).

وفي وَصِيَّة لقمان لابنه «أوصيك بخِصال تقرِّبُك من الله، وتباعدك من سخطه: أن تعبد الله لا تشرك به شيئاً. وأن ترضى بقدر الله فيما أحبَبْت وكَرِهت».

وقال بعض العارفين: من يتوكل على الله، ويَـرْضَى بقدر الله، فقـد أقام الإيمـان، وفرغ يديه ورجليه لكسب الخير، وأقام الاخلاق الصالحة التي تصلح للعبد أمره.

الخمسـون: أن الرضى يفتـح باب حسن الخلق مـع الله تعالى ومـع النـاس، فـإن حسن الخلق من الـرضى، وسوء الخلق من السخط. وحسن الخلق يبلغ بصـاحبه درجـة الصائم القائم، وسوء الخلق يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

الحادي والخمسون: أن الرضى يثمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور، وطيبَ النفس وسكونها في كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مفزع مُهْلِع من أمور الدنيا، وبرد القناعة، واغتباط العبد بقَسْمه من ربه، وفرحه بقيـام مولاه عليـه، واستسلامـه لمولاه في كل شيء، ورضاه منـه بما يجـريه عليـه، وتسليمه لـه الأحكام والقضـايا. واعتقـاد حسن تدبيره، وكمال حكمته. ويذهب عنه شكـوى ربه إلى غـيره وتبرمـه بأقضيتـه. ولهذا سمى بعض العارفين الرضى: حُسْن الخلق مع الله. فإنه يوجب ترك الاعتراض عليه في ملكه، وحذف فضول الكلام التي تقدح في حسن خُلقه. فلا يقول: ما أحوج الناس إلى مـطر؟ ولا يقول: هذا يوم شديـد الحر، أو شـديد الـبرد. ولا يقول: الفَقْـر بلاء، والعيـال هَمٌّ وغم، ولا يسمي شيئاً قضاه الله وقَدَّره باسم مذموم إذا لم يذمه الله سبحانه وتعـالى. فإن هذا كله ينافي رضاه.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أصبحتُ ومالي سرور إلا في مواقع القدر.

وقال ابن مسعود رضي الله عنـه: «الفقر والغِنَى مَـطِيَّتان مـا أبالي أيهـما ركبت. إن كان الفقر فإن فيه الصبر. وإن كان الغنى فإن فيه البذل».

وقال ابن أبي الحواري ـ أو قيل له ـ إن فلاناً قال: وددت أن الليل أطـول مما هـو. فقال: قد أحسن. وقد أساء. أحسن حيث تمنى طوله للعبادة والمناجاة، وأساء حيث تمنى ما لم يرده الله، وأحب ما لم يحبه الله.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «مـا أُبالي عـلى أي حال أصبحت وأَمْسيت: من شدة أو رخاء».

وقـال يومـاً لامرأتـه عـاتكـة، أخت سعيـد بن زيـد ـ وقـد غضب عليهـا ـ «والله لأسوأنك. فقالت: أتستطيع أن تصرفني عن الإسلام، بعـد إذ هداني الله لـه؟ قال: لا. فقالت: فأي شيء تسوءني به إذاً؟».

تريد أنها راضية بمواقع القدر. لا يسوؤها منه شيء إلا صَرْفُها عن الإسلام. ولا سبيل له إليه.

وقال الثوري يوماً عند رابعة: اللهم ارْضَ عنا. فقالت: أما تستحي أن تسأله الرضى عنك، وأنت غير راض عنه؟ فقال: أستغفر الله، ثم قال لها جعفر بن سليمان: متى يكون العبد راضياً عن الله؟ فقالت: إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة.

وفي أثر إلٰهي: «ما لأوليائي والهم بالدنيا؟ إن الهمَّ بالدنيا يُذهبُ حلاوة مناجاتي من قلوبهم».

وقيل: أكثر الناس هَمّاً بالدنيا أكثرهم هماً في الآخرة. وأقلهم همّاً بالدنيا أقلهم همّاً في الآخرة.

فالإيمان بالقدر، والرضى به: يذهب عن العبد الهم والغم والحزن.

وذكر عند رابعة وليٌّ لله قُوتُهُ من المزابل. فقال رجال عندها: ما ضرَّ هذا أن يسأل الله أن يجعل رزقه في غير هذا؟ فقالت: أسْكُت يا بطال، أما علمت أن أولياء الله هم أرضى عنه من أن يسألوه أن ينقلهم إلى معيشة حتى يكون هو الذي يختار لهم.

وفي أثر إسرائيلي: «أن موسىٰ ﷺ: سأل ربه عما فيه رضاه؟ فأوحى الله إليه: إنَّ رِضاه في كرهك، وأنت لا تصبر على ما تكره. فقال: يا رب، دلني عليه. فقال: إن رضاه في رضاك بقضائي».

وفي أثر آخر: أن موسىٰ عليه السلام قال «يا رب، أيّ خلقك أحب إليك؟ فقال: من إذا أخذت منه محبوبه سالمني. قال: فأي خلقك أنت عليه ساخط؟ قال: من استخَارني في أمر فإذا قَضيتُهُ له سَخِطَ قضائي».

وفي أثر آخر: «أنا الله. لا إله إلا أنا، قَدَّرت التقادير، ودبّرت التدابير، وأحكمت الصنع. فمن رَضيَ فله الرضى مني حتى يلقاني. ومن سَخِط فله السخط حتى يلقاني».

الثاني والخمسون: أن أفضل الأحوال: الرغبة في الله ولوازمها. وذلك لا يتم إلا باليقين، والرضى عن الله. ولهذا قال سَهل: حظُّ الخلق من اليقين على قدر حظهم من الرضى. وحظهم من الرضى على قدر رغبتهم في الله.

الثالث والخمسون: أن الرضى يخلصه من عيب ما لم يعبه الله. ومن ذم ما لم يذمه الله. فإن العبد إذا لم يرض بالشيء عابه بأنواع المعايب. وذمه بأنواع المذام. وذلك منه قلة حياء من الله. وذم لما ليس له ذنب، وعيب لخلقه. وذلك يسقط العبد من عين ربه. ولو أن رجلاً صنع لك طعاماً وقدمه إليك فعِبْته وذممته، لكنت متعرضاً لمقته وإهانته، ومستدعياً منه: أن يقطع ذلك عنك. وقد قال بعض العارفين: إن ذم المصنوع وعيبه -

إذا لم يذمه صانعه ـ غيبة له وقدح فيه.

الرابع والخمسون: أن النبيّ ﷺ سأل الله الرضى بالقضاء. كما في المسند والسنن «اللهم بعِلْمك الغَيب، وقُدرتك على الخلق، أحْيِني إذا كانت الحياة خيراً لي. وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي. وأسألك خَشْيتك في الغيب والشهادة. وأسألك كلمة الحق في الغَضَب والرِّضى. وأسألك القصد في الفقر والغنى. وأسألك نعيماً لا ينفد. وأسألك قُرَّة عين لا تنقطع. وأسأُلك الرضى بعد القضاء. وأسألك بَرْد العيش بعد الموت. وأسألك لَذَّة النظر إلى وجهك الكريم. وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضَرَّاء مضرة، ولا فتنة مُضلَّة. اللهم زَيِّنا بزينة الإيمان. واجعلنا هداةً مُهتدين»(١).

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: سأله الرضى بعد القضاء. لأنه حينئذ تبين حقيقة الرضى. وأما الرضى قبله: فإنما هو عزم على أنه يرضى إذا أصابه. وإنما يتحقق الرضى بعده.

قال البيهقي: وروينا في دعاء النبيّ ﷺ: «اللهمّ إني أسألك الصِّحة، والعِفَّة، والأمانة، وحُسْن الخُلُق، والرضى بالقَدَر»(٢).

الخامس والخمسون: أن الرضى بالقدر يخلص العبد من أن يُرضي الناس بسخط الله. وأن يذمهم على ما لم يؤته الله. وأن يحمَدهم على ما هو عين فضل الله. فيكون ظالماً لهم في الأول ـ وهو رضاهم وذمهم ـ مشركاً بهم في الثاني ـ وهو حمدهم ـ فإذا رضي بالقضاء تخلص من ذمهم وحمدهم. فخلصه الرضى من ذلك كله.

وقد روى عمرو بن قيس المُلائي عن عَطية العوفي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إنَّ مِن ضعف اليقين: أن تُرضي الناسَ بسخط الله، وأن تحمَدهم على رزق الله، وأن تَذُمَّهم على ما لم يؤتِكَ الله. إن رزق الله لا يَجُرُّه حرص حريص، ولا يرده كُره كارِه. وإنَّ الله ـ بحكمته ـ جَعَل الروح والفرح في الرِّضى

---

(١) رواه النسائي في السهو باب نوع آخر من الدعاء (٣/٥٤ ـ ٥٥) عن عمار بن ياسر رضي الله عنه. والحاكم (١/٥٢٤) عنه وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأقره الحافظ الذهبي. كما رواه الإمام أحمد (٤/٢٦٤).

(٢) وعزاه السيوطي في الجامع الصغير للبزار عن ابن عمرو رضي الله عنهما. قال المناوي: وقال الهيثمي فيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وهو ضعيف الحديث وبقية رجال أحد الإسنادين رجال الصحيح» (فيض القدير ٢/١٣٩). وفي مجمع الزوائد للهيثمي: «رواه الطبراني والبزار وفيه عبد الرحمن....» (١٠/١٧٣ ـ ١٧٤).

واليقين. وجَعَلَ الهم والحزن في الشك والسخط»[1] وقد رواه الثوري عن منصور عن خيثمة عن ابن مسعود عن النبيّ ﷺ.

السادس والخمسون: أن الرضى يفرغ قلب العبد. ويقلل همه وغمه. فيتفرغ لعبادة ربه بقلب خفيف من أثقال الدنيا وهمومها وغمومها. كما ذكر ابن أبي الدنيا عن بِشْر بن بشَّار المجاشعي ـ وكان من العلماء ـ قال: قلت لعابد: أوصني. قال: ألق نفسك مع القدر حيث ألقاك. فهو أحرى أن يُفَرِّغ قلبك. ويقلل همك. وإياك أن تسخط ذلك، فيَحِلَّ بك السخط وأنت عنه في غفلة لا تشعر به. فيلقيك مع الذين سخط الله عليهم.

وقال بعض السلف: ذروا التدبير والاختيار تكونوا في طيب من العيش. فإن التدبير والاختيار يكدر على الناس عيشهم.

وقال أبو العباس بن عطاء: الفرح في تدبير الله لنا. والشقاء كله في تدبيرنا.

وقال سفيان بن عيينة: من لم يصلح على تقدير الله لم يصلح على تقدير نفسه.

وقال أبو العباس الطُّوسي[2]: من ترك التدبير عاشَ في راحة.

وقال بعضهم: لا تجد السلامة حتى تكون في التدبير كأهل القبور.

وقال: الرضاء ترك الخلاف على الرب فيما يجريه على العبد.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «لقد تركتني هؤلاء الدعوات، ومالي في شيء من الأمور كلها أرَبٌ، إلا في مواقِع قَدَرِ الله. وكان كثيراً ما يدعو: اللهم رضني بقضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أُحبَّ تعجيل شيء أخَّرته. ولا تأخير شيء عجَّلته».

وقال: ما أصبح لي هوًى في شيء سوى ما قضى الله عزَّ وجلَّ.

وقال شُعبة: قال يونس بن عبيد: ما تمنيت شيئاً قط.

---

(١) عزاه السيوطي في الجامع الصغير لأبي نعيم في الحلية والبيهقي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً به، قال شارحه المناوي: «تعقبه ـ أي البيهقي ـ بقوله: محمد بن مروان السُّدّي ـ أي أحد رجاله ـ ضعيف» انتهى. وفيه أيضاً عطية العوفي أورده الذهبي في الضعفاء والمتروكين. وقال: ضعفوه وموسى بن بلال قال الأزدي: ساقط (فيض القدير ٢/٥٣٩).

(٢) ذكر هذا الكلام أبو نعيم في حلية الأولياء في ترجمة أبي العباس أحمد بن مسروق الطوسي. من ساكني بغداد. قال صحب الحارث بن أسد المحاسبي ومحمد بن منصور الطوسي والسري السقطي ومحمد بن الحسين البرجلاني.(حلية الأولياء ١٠٠/٢١٣ ـ ٢١٦).
وقال الشعراني في ترجمته: «من أفضل أهل طوس وسكن بغداد ومات بها سنة ٢٩٩ هـ. (١/٩٣ـ ٩٤). وانظر أيضاً كشف المجوب للهجويري ١/٣٥٨ ـ ٣٥٩.

وقال الفضيل بن عياض: الراضي لا يتمنى فوق منزلته.

وقال ذو النون: ثلاثة من أعلام التسليم: مقابلة القضاء بالرضى، والصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء. وثلاثة من أعلام التفويض: تعطيل إرادتك لمراده، والنظر إلى ما يقع من تدبيره لك، وترك الاعتراض على الحكم. وثلاثة من أعلام التوحيد: رُؤية كل شيء من الله، وقبول كل شيء عنه، وإضافة كل شيء إليه.

وقال بعض العارفين: أصل العبادة ثلاثة: لا ترد من أحكامه شيئاً، ولا تسأل غيره حاجة. ولا تدَّخر عنه شيئاً.

وسئل ابن شمعون عن الرضى؟ فقال: أن تَرْضى به مُدَبِّراً ومختاراً. وترضى عنه قاسِماً ومُعطياً ومانعاً. وترضاه إلهاً ومعبوداً وربّاً.

وقال بعض العارفين: الرضى ترك الاختيار، وسرور القلب بمرِّ القضاء، وإسقاط التدبير من النفس، حتى يحكم الله لها أو عليها.

وقيل: الراضي من لم يندم على فائت من الدنيا، ولم يتأسف عليها.

ولله در القائل:

العَبْد ذو ضَجَرٍ والرَّب ذُو قَدَر ... والدَّهْرُ ذُو دُوَلٍ والرِّزْق مَقْسُوم
والخيرُ أَجْمَعُ فيما اختار خَالِقُنا ... وفي اختيارِ سِواهُ اللَّوم والشُّوم

السابع والخمسون: أنه إذا لم يرض بالقدر وقع في لوم المقادير. إما بقالبه، وإما بقلبه وحاله. ولوم المقادير لوم لمقَدِّرها. وكذلك يقع في لوم الخلق. والله والناسُ يلومون، فلا يزال لائماً ملوماً. وهذا مناف للعبودية.

قال أنس رضي الله عنه: «خدمتُ رسول الله ﷺ عَشْر سنين. فما قال لي لشيء فعلته: لم فعلتَه؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟ ولا قال لي لشيء كان: ليته لم يكن. ولا لشيء لم يكن: لَيته كان. وكان بعض أهله إذا لامني يقول: دَعوه. فلو قُضي شيء لكان»[1].

وقوله «لو قضي شيء لكان» يتناول أمرين.

أحدهما: ما لم يوجد من مراد العبد. والثاني: ما وجد مما يكرهه. وهو يتناول فوات المحبوب، وحصول المكروه. فلو قضي الأول لكان. ولو قضي خلاف الآخر لكان. فإذا استوت الحالتان بالنسبة إلى القضاء، فعبودية العبد: أن يستوي عنده الحالتان بالنسبة إلى رضاه. وهذا موجب العبودية ومقتضاها. يوضحه:

(١) تقدم تخريجه.

الثامن والخمسون: أنه إذا استوى الأمران بالنسبة إلى رضى الرب تعالى. فهذا رضيه لعبده فقدره. وهذا لم يرضه له فلم يقدره. فكمال الموافقة: أن يستويا بالنسبة إلى العبد. فيرضى ما رضيه له ربه في الحالين.

التاسع والخمسون: أن الله تعالى نهى عن التقدُّم بين يديه ويدي رسوله في حُكمه الديني الشرعي. وذلك عبودية هذا الأمر. فعبودية أمره الكوني القدري: أن لا يتقدم بين يديه إلا حيث كانت المصلحة الراجحة في ذلك. فيكون التقدم أيضاً بأمره الكوني والديني. فإذا كان فرضُه الصبر أو ندبه، أو فرضه الرضى حتى ترك ذلك: فقد تقدم بين يدي شرعه وقدره.

الستون: أن المحبة والإخلاص والإنابة: لا تقوم إلا على ساق الرضى.

فالمحب راض عن حبيبه في كل حالة. وقد كان عِمْران بن حصين رضي الله عنه استُسْقِي بطنُهُ، فبقي ملقًى على ظهره مدّة طويلة، لا يقوم ولا يقعد. وقد نُقِب له في سريره موضع لحاجته. فدخل عليه مُطرِّفُ بن عبد الله الشِّخِّير. فجعل يبكي لما رأى من حاله. فقال له عمران: لم تبكي؟ فقال: لأني أراك على هذه الحال الفظيعة. فقال: لا تبك. فإن أحبَّه إليَّ أحبه إليه. وقال: أخبرك بشيء، لعل الله أن ينفعك به، واكتم عليَّ حتى أموت. إن الملائكة تزورني فآنَسُ بها. وتسلم عليَّ فأسمع تسليمها.

ولما قدم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إلى مكة ـ وقد كُفَّ بصره ـ جعل الناس يُهرَعون إليه ليدعو لهم. فجعل يَدْعو لهم. قال عبد الله بن السائب: فأتيته وأنا غُلام. فتعرفتُ إليه. فعرفني. فقلت: يا عم، أنت تدعو للناس فيشفون. فلو دعوت لنفسك لرد الله عليك بصرك. فتبسم. ثم قال: يا بني، قضاء الله أحبُّ إليَّ من بَصَري.

وقال بعض العارفين: ذنب أذنبته. أنا أبكي عليه ثلاثين سنة. قيل: وما هو؟ قال: قلت لشيء قضاه الله: ليته لم يقضه، أو ليته لم يكن.

وقال بعض السلف: لو قُرض لحمي بالمقاريض كان أحب إليَّ من أن أقول لشيء قضاه الله: ليته لم يقضه.

وقيل لعبد الواحد بن زيد: هٰهنا رجل قد تعبد خمسين سنة. فقصده. فقال له: حبيبي، أخبرني عنك، هل قنعت به؟ قال: لا. قال: فهل أنست به؟ قال: لا. قال: فهل رضيت عنه؟ قال: لا. قال: فإنما مزيدك منه الصوم والصلاة؟ قال: نعم. قال: لولا أني أستحي منك لأخبرتك: أن معاملتك خمسين سنة مَدْخولة.

يعني أنه لم يُقَرِّبه فيجعله في مقام المقربين. فيوجده مواجيد العارفين، بحيث يكون مزيده لديه: أعمال القلوب. التي يستعمل بها كل محبوب مطلوب، لأن القناعة: حال

الموفق، والأنس به: مقام المحب، والرضى: وصف المتوكل. يعني أنت عنده في طبقات أصحاب اليمين، فمزيدك عنده مزيد العموم من أعمال الجوارح.

وقوله[1] «إن معاملته مَدْخولة» يحتمل وجهين:

أحدهما: أنها ناقصة عن معاملة المقربين التي أوجبت لهم هذه الأحوال.

الثاني: أنها لو كانت صحيحة سالمة، لا علة فيها ولا غش: لأثمرت له الأنس والرضى والمحبة، والأحوال العلية. فإن الرب تعالى شَكُور. إذا وصل إليه عمل عبده جَمَّل به ظاهره وباطنه. وأثابه عليه من حقائق المعرفة والإيمان بحسب عمله. فحيث لم يجد له أثراً في قلبه، من الأنس والرضى والمحبة: استدل على أنه مدخول، غير سالم من الآفات.

الحادي والستون: أن أعمال الجوارح تضاعَف إلى حد معلوم محسوب. وأما أعمال القلوب: فلا ينتهي تضعيفها. وذلك لأن أعمال الجوارح: لها حَدٌّ تنتهي إليه. وتقف عنده. فيكون جزاؤها بحسب حدها. وأما أعمال القلوب: فهي دائمة متصلة، وإن توارَى شهود العبد لها.

مثاله: أن المحبَّة والرضى حال المحب الراضي، لا تفارقه أصلاً. وإن توارى حكمها. فصاحبها في مزيد متصل. فمزيد المحب الراضي: متصل بدوام هذه الحال له. فهو في مزيد، ولو فترت جوارحه. بل قد يكون مزيده في حال سكونه وفتوره أكثر من مزيد كثير من أهل النوافل بما لا يترك نسبة بينهما. ويبلغ ذلك بصاحبه إلى أن يكون مزيده في حال نومه أكثر من مزيد كثير من أهل القيام. وأكله أكثر من مزيد كثير من أهل الصيام والجوع.

فإن أنكرتَ هذا فتأمل مزيد نائم بالله، وقيام غافل عن الله. فالله سبحانه إنما ينظر إلى القلوب، والهمم والعزائم. لا إلى صور الأعمال. وقيمة العبد: هِمَّته وإرادته. فمن لا يرضيه غير الله ـ ولو أعطى الدنيا بحذافيرها ـ له شأن. ومن يرضيه أدنى حظ من حظوظها له شأن. وإن كانت أعمالهما في الصورة واحدة. وقد تكون أعمال الملتفت إلى الحظوظ أكثر وأشق. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

وقد اختلف أرباب هذا الشأن في مسألة. وهي: هل للرِّضى حَدٌّ يَنْتَهي إليه؟.

فقال أبو سليمان الدَّاراني: ثلاثة مَقامات لا حد لها: الزهد، والورع، والرضى.

وخالفه سليمان ابنه ـ وكان عارفاً، حتى إن من الناس من كان يقدِّمه على أبيه ـ

---

(١) أي الإمام الأنصاري الهروي صاحب «منازل السائرين».